

تحقيق

الحزب القومي: نسر وحمامة ودوري

قبل عام من بلوغ الحزب السوري القومي الاجتماعي سن الثمانين، تتكثف اجتماعات لَم شمل القوميين. أول من أمس، تلاقى مسنّو الحزب بدعوة من القيادة. اليوم، يلتقي المبعدون والمبتعدون للدعاء على القيادة. ويوم الأحد المقبل يجتمع قوميون آخرون بدعوة من قيادة أخرى.

غسان سعود

يروى الأديب الكبير، القومي سعيد تقي الدين، نقلاً عن الكاهن الذي تلقى اعتراف الزعيم قبيل إعدامه، أن مؤسس الحزب السوري القومي الاجتماعي أنطون سعادة طلب التدوين أنه سيعدم في تلك الليلة (8 تموز 1949)، «أما أبناء عقيدتي فسينتصرون وسيجيء انتصارهم انتقاماً لموتي». لم ينتقم القوميون لموت سعادة كما شاء هو ولم ينتصر أبناء عقيدته، لكن مجرد صمود الحزب العلماني بعد الصعاب التي مرت عليه يعدّ أمراً لافتاً. وما احتفالات الأحزاب والجماعات السورية القومية الاجتماعية المتعددة بالذكرى التاسعة والسبعين لتأسيس الحزب (16 تشرين الثاني 1932) غير إعلان عن إنجاز جامع: حزب سعادته يمنح نفسه وسام الثبات.

في أسبوع واحد يصل إلى مكتب الصحيفة ثلاث دعوات: الأولى عبر الفاكس عنوانها «ثبات وتجدد» يدعو من خلالها رئيس الحزب النائب أسعد حردان إلى تكريم من مضى على انتمائه إلى الحزب خمسون عاماً أو أكثر، وذلك في «قصر المؤتمرات - ضبية». الثانية عبر دعوات شخصية لبعض الصحافيين يدعو فيها رئيس الحزب السوري القومي الاجتماعي الدكتور علي حيدر إلى إحياء عيد الحزب في «قصر إميل لحود للمؤتمرات - ضبية» أيضاً. الاحتفال الأول يوم الأحد 14 تشرين الثاني، والثاني يوم الأحد 21 تشرين الثاني، وكلاهما في قصر لحود للمؤتمرات، وعند الحادية عشرة قبل الظهر. أما الدعوة الثالثة فيحملها زملاء صحافيون قوميون يقولون إنهم تنادوا إلى الاجتماع في فندق مساء اليوم بعدما ضاقت بهم القاعات الحزبية الرسمية.

في النتيجة يتبين أن المقصود بلم شمل القوميين ليس إلا لم شمل المجموعات القومية المتعددة، دون أن تتضح بالنسبة إلى القوى الثلاث (وأكثرها جدية، الحزب برئاسة حردان طبعاً) معالم المرحلة اللاحقة أو ما بعد لم الشمل، في ظل تراكم للمعطيات يؤكد أن الأفرقاء الثلاثة لا يسعون إلى تعزيز أوضاعهم كتمهيد للجلوس إلى طاولة مفاوضات تنتهي بلم شمل جدي للحزب يسمح له بالوقوف على قدميه بدل الصعود مرة فوق بوسطة حزب الله ومرة على أكتاف جمهوره في ملعب الرابية. وهكذا يبدو الثابت الوحيد بعد 79 عاماً على التأسيس أن الانقسامات الداخلية والخلافات فعلت في حيز سعادة ما عجزت عنه الأحزاب الطائفية والسلطات المتعاقبة قبل الحرب (بعد الحرب صار الحزب برئاسة حردان جزءاً من النظام).

وسط المجموعات القومية الثلاث، يبدو الحزب برئاسة حردان أكثرهم معرفة بما يريد، وإن كان لا يتقدم كما كان يأمل. فبعد الاحتفال العسكري الحاشد في أعالي المتن الشمالي قبل أشهر، الذي نُبت من ظهور الشورى الحضور الشبابي والجهوية القتالية في الحزب (المقاتل أبداً)، جاء الاحتفال الأخير ليثني على تضحيات الأقدمين ويظهر عمق الجذور القومية في المجتمع اللبناني. في محاولة من قيادة الحزب للتأكيد، عبر إميلي أبو جودة وأسمى كنعان وغيرهما ممن تجاوزن في انتمائهن الحزبي الخمسين عاماً، أن القوميين ثابتون في العقيدة وجاهزون أبداً لمواكبة القيادة حين تدعوهم. وقد نجحت القيادة الحردانية عبر التعبئة الشعبية والحشد القومي في القول،

من قلب جبل لبنان، إن حالة المؤسسة الحزبية الأساسية أفضل مما يسوق بعض القوميين وغير القوميين، ولم تلامس حد الانهيار أو الإفلاس

الشعبي كما يقول خصوم حردان. ولكن لا بد من الإشارة إلى نقطة ضعف كبيرة أخرجها احتفال الأحد إلى العلن وتمثلت في تغيب حزبيين أساسيين،

منذ أكثر من خمسين عاماً وأكثر، مثلوا في مراحل مختلفة أعمدة في الحزب القومي، مثل الرئيس السابق للحزب يوسف الأشقر وغيره ممن

رفضوا التكريم من قيادة يرون أنها أساءت كثيراً إلى نضالاتهم وإلى فكر أنطون سعادة، بينما نجحت القيادة عبر وسام الثبات في استقطاب بعض أشد معارضيها مثل حافظ الصايغ الذي رأى في المبادرة الحردانية مد يد يستوجب الرد عليه بأحسن منه، وسط استغراب بعض القوميين مبدأ إعطاء وسام الثبات لمن بلغ مرتبة الأمانة في الحزب، ما يجعله في غنى عن التكريات الشكلية. ووفق الحردانيين على حردان، فإن الأخير يعجز عن إجراء تعديل في مجلس العمدة يطرح إليه منذ أشهر، مقدمة لإحداث قفزة في الإدارة الحزبية، وذلك لعدة أسباب، منها رفض تعاونهم معه وتمسكه ببقاء عميد الدفاع وائل حسنية والتربية صبحي ياغي في موقعيهما، وهما المنصبان الأساسيان في مجلس العمدة.

في المقابل، فإن الإعداد لعشاء الليلة الذي سيقام في فندق الكومودور بدأ قبل أسابيع عبر فكرة أطلقها الأمين في الحزب السوري القومي الاجتماعي سركيس أبو زيد وأساسها لم شمل القوميين المشتكين، بعضهم في الحزب الذي يترأسه حردان وبعضهم في الحزب الذي يترأسه علي حيدر (الانتفاضة) وبعضهم في المنزل، حول طاولة واحدة. وسرعان ما تلاقى في مكتب أبو زيد كل من نصري الصايغ ونبيل فغالي ونسيب الشامي وغسان الشامي وعبد الله حيدر ومفيد القنطار وميلاد السبعلي ونمر ثلج وكمال ذبيان وشوقي رياشي ورضوان رزق وعبد الكريم عبد الرحمن وغيرهم ممن يوصفون بأنهم من أركان الحزب التاريخيين. اللقاء الحميمي الذي يفترض أن يكون مفعماً بالذكريات وبتبادل العتاب، يؤكد وجهة النظر الحردانية القائلة إن العائدين عليه لا يستطيعون أكثر من الاجتماع في مقهى أو مطعم أو فندق لانتقاده والتنفيس عن أحقادهم عليه. وبالتالي، في عشاء اليوم، لن يعلن مشروع جدي أو رؤية للتعامل مع حردان أو غيره، ولن تجمع وجهات النظر حول طاولة العشاء، التي تصل في بعض الحالات إلى حد التناقض، في وجهة نظر واحدة، ولن يخرجوا بالتالي بقرار يعيدهم إلى حركة الصراع الحزبي الحقيقي الذي عرف حردان كيف يحسمه منذ سنوات، في ظل وجهة نظر أخرى تقول إن التلاقي خطوة أولى أساسية قد تسهم كثيراً في تشجيع أكثرية هؤلاء على حسم خياراتهم، مع العلم بأن حردان يسخر في مجالسه الخاصة من بعض هؤلاء، ويردّد أن الكبير وسطهم يحلم بإشارة منه للدخول إلى «جنة الحزب».

أما علي حيدر - الداعي إلى الاحتفال الثاني في قصر المؤتمرات - فيعد منذ توليه رئاسة حزبه قبل أشهر بنهضة قومية يبدو حتى اليوم أنها ستقتصر على التذكير بأقوال سعادته بشأن «مهاجمة المفاسد القائمة التي تمنع امتنا من النمو ومن استعمال نشاطها وقوتها»، مع العلم بأن حيدر يتذكر قول سعادته «نحن حركة هجومية لا حركة دفاعية. نهاجم بالفكر والروح، ونهاجم بالأعمال والأفعال أيضاً»، لكنه يؤثر حتى الآن عدم الهجوم، سواء بالأعمال أو بالأفعال.

يبقى أن الحزب على مشارف الثمانين يعيش بانحطته الثلاثة (جناح نسر وجناح حمامة وجناح دوري) حركة لا تعرفها الأحزاب التي لم تتجاوز عامها الثامن بعد، وهو أمر بالغ الإيجابية، خلافاً لما يعتقده كثر من قوميين وغير قوميين.



أسعد حردان (أرشيف - بلال جاويش)

بورترية «ميداني»

أنطون سعادته، ولا ينسى الإشارة إلى كونه هو قد تبخر في دراسة العلاقات اللبنانية - الإسرائيلية منذ نشأتها. الرجل الذي اختار الظل لا يعنيه الإعلام ولا الحديث عن تجربته. يزعمه عدم وجود من يفكر في الشأن العام في العالم العربي. يحاول ألا يستغيث في الكلام عن قضايا لبنان المحلية. لكنه يخشى أن تتحول معارك قوى 8 آذار إلى ما يشبه معارك الحركة الوطنية، فتضيع البوصلة. يتحدث عن تحديات اللبنانيين ويضحك من شطارتهم في اختراع السيناريوهات. بالنسبة إليه تبنت مجموعة أخرى مشروع الكتاب اللبنانية والقوات، «المشروع الخطر» كما يسميه.

يعجز الرجل الهادئ عن تهذئة أصابع يديه، فهي تبقى خلال تحدته في حركة دائمة. يمسك فنجان الشاي بثلاث أصابع. وحين يود إظهار تركيزه على كلام محدثه، يلمص أصابع يديه بعضها ببعض، كأنه يصلي، قبالة أنه مباشرة. متزوج وله ولدان يربيان بدلاله. يدافع عن الحزب بحماسة. الثبات واحترام المؤسسات الحزبية أساسيان في أن تكون سورياً قومياً اجتماعياً، بالنسبة إليه.

في اتجاه الصلعة الأخذة بالتوسع. يخلو جبينه من التجاعيد. حاجبه الأيسر أسمك من الأيمن. يرتدي نظارة طبية سمكية وقد شفقت عيناه فما عاد الضوء القوي يضايقه. شامتان على خده الأيمن وشامة على الأيسر. ظلال اللحية السابقة التي ميّزته في صورته المعروفة تغطي خديه. يقول إن «كرشه» يكبر رغم أن مشيته وطريقة جلوسه توحيان بمواظبته على التمارين الرياضية.

حين يضحك الآخرون بيتسم ويحاول الخروج قليلاً من جذبه الطاغية ليجاري أصدقائه في التنكيت، مصطنعاً فور إنهائه النكتة ضحكة صغيرة. عند الجد، لا يسمع بأن يعلو صوت فوق صوته. يتحدث بهدوء، يأخذ نفساً عميقاً بين عبارة وأخرى. يتبين من مداخلاته أنه ذو ثقافة عامة واسعة. فيتحدث بمعرفة عن تفاصيل المذاهب المسيحية وتمايزاتها بعضها عن بعض. يعرض معلوماته في شؤون متنوعة، من الكهرباء إلى المياه وصولاً إلى السياسة. يبدي إعجاباً بكتاب الباحث أنطون بطرس «8 تموز محاولة في تاريخ رجل فذ» حيث يعرض الكاتب الروايات بشأن اغتيال زعيم الحزب السوري القومي الاجتماعي

لا يشبه صورته المتداولة، لا شكلاً ولا مضموناً. خطواته سريعة. يسير من دون مرافقين ولا سلاح. يقارب طوله متراً وثمانين سنتيمتراً. يتوجه مباشرة إلى طاولة أصدقائه من دون أن يتلفت ليستطلع وجوه الموجودين في المطعم. يسلم على أصدقائه وأصدقائهم، معرّفاً عن نفسه باسم وهمي لا يسترعي اهتمام من لا يعرف هويته الحقيقية، ومن يعرفها يسلم عليه ببرودة المتأمرين. في أول الكلام كما في آخره، لا يمكن من لا يعرفه أن يعرفه.

لا يحمل هاتفاً خلويًا. حتى الأصدقاء المقربون لا يعلمون مكان إقامته الحقيقي، فيحضر وسطهم فجأة. صفته «رجل أعمال»، دائم التنقل. يضع القميص المقلّم غير المشوم باسم شركة تحت «البنطلون» الرسمي. يبقى آخر زرين في القميص الشتوي، دائماً، مفتوحين. يضع في معصمه ساعة رياضية. لم يعلّق شيء على وجهه أو رقبته أو ساعديه من آثار التعذيب والتعنيف اللذين تعرّض لهما. شعره، أطافره القصيرة وتنسيق ثيابه تجعل مظهره أقرب إلى أستاذ المدرسة منه إلى «المقاتل».

بدأ الشيب بالتسلل من أطراف شعره